الفريعة بنت مالك

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

الفريعة بنت مالك

قال لي ولدي: ومن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها الفريعة بنت مالك الأنصارية، والدها مالك بن سنان، وأمها أنيسة بنت أبي خارجة واسمه: عمرو بن قيس، وأخوها الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري واسمه سعد بن مالك، وأما أخوهما لأمهما فيدعى قتادة بن النعمان، وأختها لأمها الأنصارية المبايعة أم سهل.

تزوجت الفريعة من سهل بن رافع فقتل عنها، ولما أنهت عدتها خلف عليها سهل بن بشير من بني ظفر من الأنصار.

وكان لهذه الأسرة الكريمة التي نمت الفريعة بنت مالك في كنفها شأن رفيع في الإسلام، وكفاهم فضلاً أن يكونوا من الأنصار الذين قال رسول الله ﷺ عنهم: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»، وقال المهاجرون فيهم: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً من كثير، كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا! ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عزَّ وجلَّ لهم**».

وأحسب أن الله جلَّ جلاله سيجزي الأنصار خير الجزاء لما قاموا به من نصرة رسوله ﷺ، وحسن معاملتهم ومواساتهم

لإخوانهم الذين هاجروا إليهم من مكة، ولنقلب صفحات سيرة هذه الأسرة الفاضلة.

كان مالك بن سنان والد الفريعة قد بشره رسول الله ﷺ بالجنة حين قال لأصحابه: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**» وأشار إلى أبي الفريعة.

وأما أبو سعيد الخدري أخوها فقد كان مفتي المدينة حرسها الله، وأحد الرواة المكثرين لأحاديث رسول الله ﷺ حيث روى رضي الله عنه /١١٧٠/ حديثاً عن رسول الله ﷺ، وهو أحد الرواة الثقات، والحفاظ الذين لا ينكر فضلهم، ولا يجحد علمهم من الصحابة الكرام، وقد برز دور أبي سعيد الخدري في معركة الخندق التي أمد الله سبحانه وتعالى فيها رسوله ﷺ بأحد جنوده التي لا يعلمها إلا هو وهي الريح، فقلبت قدور المشركين وأطفأت نيرانهم، وهدمت بناءهم، فولّوا الأدبار، وانقلبوا إلى مكة هاربين، يجرون ذيول الخيبة ويتجرعون كأس الهزيمة المريرة.

وكان رسول الله ﷺ يستعرض الجند يوم «أحد» فرأى أبا سعيد بصحبة والده مالك بن سنان وهو يريد القتال، فردَّه ﷺ لصغر سنه مع عدد من الصغار الذين لا يصلحون للقتال.

وعاد أبو سعيد إلى البيت وعيناه تذرفان الدموع لعدم السماح له بدخول المعركة، فتلقته أخته الفريعة، وأخذت تكفكف دموعه، وتخفف حزنه، وتقول له: إن جهاد المشركين مستمر، وإن فرص اللقاء بهم لكثيرة، وسيأتي قريباً اليوم الذي يسمح لك بنيل شرف الجهاد ورفع راية الإسلام.

وحين دبّت الفوضى في صفوف المسلمين يوم «أُحُد»

وكسرت رباعية رسول الله ﷺ وشقت شفته وجرح جبينه، وسال الدم على وجهه الشريف، أحاطت به ثلة من الصحابة، يحمونه بصدورهم من أية رمية طائشة، وأسرع مالك إلى رسول الله ﷺ وأخذ يلعق الدم عن وجهه الشريف، ولما أمره النبي ﷺ بقوله: «**مُجَّهُ**» قال له مالك: والله لا أمجه أبداً.

لقد أراد مالك من ابتلاع دم رسول الله ﷺ أن يحصن نفسه من النار لأن جسد رسول الله ﷺ مُحَرَّمٌ عليها.

وظل مالك يُجاهد الكافرين عن رسول الله ﷺ حتى سقط شهيداً، ولما عاد المسلمون مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو سعيد الخدري فبادره رسول الله ﷺ بقوله: «**سعدُ بن مالك؟**»

قال: نعم بأبي أنت وأمي.

ومال أبو سعيد على رسول الله ﷺ، وجعل يقبل ركبتيه، فقال له النبي ﷺ مواسياً: «**آجرك الله في أبيك**».

كان أبو سعيد رسول أسرته ليتسقط أخبار المعركة وينظر ما فعله أبوه، فلما علم من رسول الله ﷺ باستشهاده، عاد إلى أهله ليخبرهم بذلك، فاحتسبوه عند الله، واسترجعوا ـ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ثم أجزلوا الثناء على الله وراحوا يحمدونه على سلامة الحبيب الأعظم، واعتبروا كل مصيبة بعد رسول الله ﷺ هينة.

وحزنت الفريعة على أبيها حزناً شديداً، لكنها تذكرت أن استشهاده بلَّغه الجنة، فطابت نفسها، وقرت عينها بما نال.

لقد رحل مالك دون أن يترك لأهله ما يعينهم على تدبير

أمور معيشتهم، حتى عز عليهم ثمن الطعام الذي يحتاجون إليه من أجل بقائهم، واستمرار حياتهم.

ولكن هذه الأسرة المؤمنة استغنت بالله، عمن سواه، فما أسرع ما أغناها من فضله، وعمها ببركته، فباتت من أكثر الأنصار مالاً، وأعظمهم ثروة، وتحقق فيهم قول النبي ﷺ: «**من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله**».

قال: وماذا كان من أمر الفريعة بعد يا أبي؟

قلت: لم تكد الفريعة بنت مالك تخرج من دائرة أحزانها على أبيها حتى امتحنها الله امتحاناً آخر سبَّب لها الكثير من الآلام، وغمر نفسها بالأسى العميق.

قال ولدي: وأي امتحان تعرضت له الفريعة يا أبي؟

قلت: كانت الفريعة قد تزوجت سهل بن رافع وكان لزوجها عدد من الأرقاء فأَبَقُوا ـ أي: فرُّوا ـ منه، وخرج سهل في طلبهم، وراح يبحث عنهم حتى أدركهم قرب المدينة، فلما أراد أن يعيدهم اجتمعوا عليه وتمكنوا من قتله، ولما علمت الفريعة بما أصاب زوجها تملّكها حزن شديد، وفوّضت أمرها إلى الله، واستسلمت لقضائه.

كانت الفريعة تملك عقلاً راجحاً، ولما أرادت أن تعود إلى أهلها لتعيش بينهم بعد مصرع زوجها، خطر لها أن تسأل رسول الله ﷺ رأيه في الأمر الذي عزمت عليه، وها هو ذا الإمام مالك يسجِّل لنا في الموطَّأ ما روته زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان أخبرتها: أنها جاءت إلى

رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أَعْبُدٍ له أَبَقُوا ـ فرُّوا ـ حتى إذا كانوا بطرف القَدُوم ـ موضع قريب من المدينة ـ لحقهم فقتلوه.

قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكنٍ يملكه ولا نفقة.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

قالت: فانصرفتُ، حتى إذا كنتُ في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ، أو أمر بي فنوديتُ له، فقال: «**كيف قلت؟**».

فرددت عليه القصة التي ذكرتُ له من شأن زوجي، فقال: «**امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله**»، أي: أمرها بالعدة.

قالت: فاعتدت ـ أي: جلست في العدة ـ فيه أربعة أشهر وعشراً.

وتمضي الفريعة رضي الله عنها في روايتها، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل فسألني عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه وقضى به.

وقد ذكر هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده، وصاحب الإصابة، وصاحب أُسُد الغابة، كما أورده ابن سعد في طبقاته.

ولم يكن أمام الفريعة العابدة المطيعة المبايعة لرسول الله ﷺ مفر من طاعته؛ لأن طاعته من طاعة الله، كما جاء في كتاب الله.

ويروي أصحاب السير: أن ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حين سئل عن مثل حال الفريعة، وما أمر رسول

الله ﷺ بشأن المتوفى عنها زوجها، دعاها فسألها، ثم قضى بما أخبرته به أمام ملأ من المهاجرين والأنصار، ثم قضى بهذا الحديث فقهاء المدينة والعراق ومصر والحجاز والشام.

وسيبقى ما حدّثت به الفريعة عن رسول الله ﷺ مرجعاً للفقهاء والقضاة حتى آخر الزمان؛ لأن رواية النساء عن رسول الله ﷺ متفق عليها بالإجماع، ولولا ذلك، لضاعت سنن كثيرة عن النبي ﷺ، تم بها هذا الدين، ولم يسمعها من رسول الله ﷺ إلا نساء من ذوات العقل والفهم والثقة التي لا يرقى إليها أدنى ارتياب.

وقد أورد صاحب كتاب زاد المعاد أن محمد بن سيرين ذكر أن امرأة توفي عنها زوجها ـ وهي مريضة ـ فنقلها أهلها، ثم سألوا، فكلهم يأمرهم أن ترد إلى بيت زوجها؟

قال ابن سيرين: فرددناها في نمط ـ فراشٍ ما ـ وكان حجة ردها لأهلها حديث الفريعة بنت مالك رضي الله عنها.

فهل علمت أن رواية الحديث عن رسول الله ﷺ شرف كبير، وسبيل إلى إحقاق الحق، ووضع الأمور في نصابها، واجتناب معصية الله ورسوله ﷺ يا بني؟

قال ولدي: ألم تشارك الفريعة بنت مالك أسرتها في الجهاد ضد أعداء الله والدين يا أبي؟

قلت: بلى يا بني، كان خروج نساء الأنصار مع رجالهن وآبائهن وإخوانهن وأبنائهن إلى الجهاد أمراً مألوفاً، بل أصبح شأناً لا محيد عنه، وكان خروج النساء يهدف إلى تقديم الطعام والشراب للمقاتلين، وعلاج الجرحى الذين يسقطون خلال

المعركة، وقد أخذت الفريعة نصيبها من هذا الواجب، فلم تُعرض عنه، ولم تتخلَّ عنه، بل كانت حريصة مع صواحبها على الاستمرار في أدائه على خير وجه.

وكانت المشاركة في الجهاد تهدف إلى الفوز بإحدى الحسنيين: إما نصر على أعداء الله وقطع دابرهم، أو نيل الشهادة التي تبلغ صاحبها إلى الجنة.

ولنستمع إلى مالك بن سنان والد الفريعة، وكان قد تخلف عن حضور غزوة «بدر» وهو يتحدث إلى رسول الله ﷺ يوم «أحد» ويقول: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنيين، إما أن يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد، فيذلّهم الله لنا، فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة.

والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان، إنَّ كلاً لفيه الخير، وقد ذكر ذلك الواقدي في مغازيه.

ولننظر ما كان من أمر أخيها لأمها قتادة بن النعمان يوم بدر، وما صنع يوم «أُحُد».

كان قتادة واحداً من أشهر رماة المسلمين الأنصار، حتى لا يكاد سهمه يخطىء رَمِيَّته، وقد استطاع أن يسطر يوم «بدر» الأغرَّ أروع صفحات البطولة، ويرسم أبدع صور البسالة والفداء، مما أوقع في صفوف قريش أفدح الخسائر، وفي أثناء القتال يوم «أحد» حين ولى المسلمون هاربين، بعد أن أشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قتل، كان قتادة أحد أبطال الصحابة الذين أحدقوا برسول الله ﷺ، وكانوا تروساً لحمايته من أية ضربة معادية طائشة، وفيما كان قتادة يحمي الحبيب

الأعظم ﷺ أصابه سهم في عينه فأخرجها من مكانها.

وقد روى الطبراني وابن شاهين عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد، فوقعت على وجنته، فردها النبي ﷺ، فكانت أصحَّ عينيه.

وأورد أبو نعيم صاحب الحلية عن قتادة قال: كنت أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت - أي سقطت - منه حدقتي فأخذتها بيدي، وسعيتُ إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال: «**اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك، فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً**» فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً.

وتلك مكرمة نالها قتادة وخرج بها من معركة «أحد» التي خسرها المسلمون بسبب عصيان أوامر النبي ﷺ من قبل الرماة، وكان فوز قتادة بعين أصح من عينه الأولى؛ لأنه كان في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وشتان بين المطيع والعاصي، والمحسن والمسيء، واختلاف حالهما في الثواب والعقاب، وحُسنُ أو سوء المصير.

قال ولدي: هلاَّ حدثتني يا أبي عن بشارة الفريعة بنت مالك بالجنة؟ ومتى حصلت عليها؟

قلت: خرجت الفريعة بنت مالك مع رسول الله ﷺ والمسلمين إلى مكة في السنة السادسة للهجرة، يريدون العمرة والطواف بالكعبة المشرفة، لكن قريشاً اعترضت على تلك الخطوة وقررت منعها بكل ما لديهما من طاقات.

ولما علم رسول الله ﷺ بعزم قريش أوفد عثمان بن عفان

ليؤكد لقريش أن خروج المسلمين قاصدين مكة للطواف بالبيت وتعظيم حرمته، وأما القتال فلا رغبة لهم فيه.

وقال أبو سفيان بن حرب لعثمان ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف به، فرد عليه عثمان: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فلما سمعت قريش ذلك احتبست عثمان لديها، وأشاعت أنه قد قتل.

وجاء نبأ مصرع عثمان إلى رسول الله ﷺ، وقد نزل بالمسلمين عند الحديبية، فوقف تحت شجرة سَمُرَةٍ، ونادى مناديه بالناس أن يسارعوا إلى رسول الله ﷺ، فلما حضروا قال لهم: لا نبرح حتى نناجز القوم، ثم دعاهم إلى البيعة، وقد سميت بيعة الرضوان.

وحضرت الفريعة تلك البيعة مع أربع عشرة مائة من المسلمين والمسلمات، ونزل قول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

لقد فاز أصحاب البيعة برضوان الله، ورضوان رسوله ﷺ، ولم يتخلف عن البيعة يومئذٍ إلا الجد بن قيس الأنصاري لنفاقه.

وقال رسول الله ﷺ للمبايعين حينها: «**أنتم اليوم خير أهل الأرض**» وقال أيضاً:

«**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»، وقد اشترك المبايعون لرسول الله ﷺ في الحديبية مع أهل بدر في بشارتهم بالجنة، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله ﷺ: أن عبداً

لحاطب بن أبي بلتعة، جاء يشكوه إلى رسول الله ﷺ ويقول:

ليدخُلَنَّ حاطبٌ النار، فقال له الرسول ﷺ: «**كذبت، لا يدخلها، شهد بدراً والحديبية**».

فهنيئاً لأهل «بدر» و«الحديبية» هذا التشريف العظيم، وهذا التكريم الكريم!

ولتسعد الفريعة وسائر المبايعين، بدخول دار المتقين، فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا بدخول جنته جديرين.

أما الذين عادَوا رسول الله ﷺ، وجحدوا أنعُم الله التي أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة بعد أن أنكروا وجوده، فقد أعدَّ لهم سلاسل وأغلالاً وسعيراً، وطعاماً من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، وعذاباً أليماً.

رحم الله الفريعة المبايعة المحدثة الصادقة، وأحسن نزلها مع عباد الله الصالحين.